سوى ان ياتوا ويواصلوا اعمالهم فقط ، قسائم كانت قد بورت واخرى زرعت بحساب ، وكل شيء كان متوقعا ومحسوبا بحذر ، لقد قرأوا السحب وراقبوا الريح ، وربما توقعوا القحط ، والسناج ، واليرقان ، وحتى فئران الصيف ، بل تدارسوا الاسعار التي تعلو والتي تنخفض ، واذا ما ضربت هذه الاسعار من هنا ، كيف تعدل من هناك ، فاذا ما خسرت الحبوب ، يربح البصل ـ اللهم ، بالطبع ، الا الحساب الوحيد الذي لم يكن بالحسبان ، والذي يسرح الآن بالذات ويمرح ، ويغشى المزارع الشاسعة كي يرثها ٠

ولان السبل كلها كانت موحلة ، ولاننا كنا قد جبنا اطراف الحقول كلها (لم يظهر رجل واحد ٠ سوى مرة فوق تلة مجاورة ، حين رأينا عدة اشخاص ، شردتهم طلقة واحدة وكأن الارض كانت قد انشقت وابتلعتهم) ، عدنا الى الطريق الترابية الكبيرة متأخرين جدا ، وحين خرجنا اليها كانت اربع شاحنات كبيرة تنتظر في رتل واحد، امام بركة ماء مستطيلة ، كانت قد أحبت العبث فغفت في منتصف الطريق تماما ، دون ان تترك اي ممر سواء الى هنا او هنا ، بينما وقف السائقون ومساعدوهم على ضفافها يتصايحون البيانات والتصريحات مع الجانب الاخر ، وبغض النظر عن العبارات المختلفة الاخرى قالوا ايضا بانهم يكتفون بما غاصوه حتى الان ـ ومن بعد نهاية العالم! وانه لن يضير ـ في رأيهم ـ اي اعرابي في العالم اذا ما اجهد رجليه الناعمتين واتى اليهم بنفسه ، وليقل شكرا على ذلك ! وفي المقابل كان ملازمنا يقف في الناحية الثانية زاعقا بما يقوله من ناحيته ، الا انه كان لا يستطيع اقناعهم ويبدو انه كان هو الخاسر٠ فادعاؤه بان ارضية المياه الراكدة ليست موحلة ، لم يقنع احدا بعد ان كانوا قد كفروا بوجود اية ارضية تحت الماء ٠ ولذلك فقد وقع الاختيار على سيارتنا الجيب لان تكون رائد ـ تجارب ، مقترحين علينا ان نقطع الماء بسرعة وكأن شيئا لم يكن كي لا نغوص ، ورويدا رويدا كذلك وكأن شيئا لم يكن كي لا نغوص ٠ وبالطبع وفي وسط البركة بالضبط، ولسبب ما ، انطفأت السيارة ، ولا فرق بعد ذلك ما اذا كانت قد عادت بعد لحظة واديرت ثم قطعت البركة بسهولة وكأن شيئا لم يكن (وهي تفج امواجا قذرة مزبدة) ، باشتثناء خرطوم مياه عكره كان قد وجد طريقه الى ما كان لا يزال جافا من ثياب يهودا بالذات (والمسكين وصل به غضبه الى حد السكوت المنذر شرا ، والمخجل حتى الخزي) ـ والامر لم يحسم ، فقد رفض السائقون الاستماع ، واعلنوا انهم سيستديرون بشاحناتهم ، بشتى الحيل ، وفي الحال ، استعدادا للعودة في الطريق الترابي ، اما عربنا فما علينا الا ان نحضرهم الى هنا عبر الثغرة التي في السياج من فوق ، ولم يكن الوقت الطويل جدا الذي اضعناه الا عبثا ، اذ هذا ما كانوا قد طالبوا به منذ البداية ٠ وعندها صعد ملازمنا الاول الجيب عائدا الى القرية ، بينما كلفنا نحن بتوسيع الثغرة واعداد الطريق٠

وبالطبع لم نحرك ساكنا ، اللهم عدا اثنين او ثلاثة الواح من الصبير كنا قد دسناها باعقب البنادق صدفة ، وجلسنا بدلا من ذلك نشاهد صراع السائقين مع سياراتهم الهوجاء في الطريق الضيق ، وندرس كل حركة لها بمعرفة مهنية ، وبادراك فني ودخان سجائر ٠ اما يهودا فقد انتقل الى الجانب الاخر ، جانب الشمس ، ووقف هناك يحدق بالشمس بنظرات مخيبة للآمال يفكر في جبروتها مليا ، وبالتالي لم نشعر كيف تقدمت منا فجاة ، جماعات العرب الاولى ، وطلعت علينا برائحة ثيابها الخاصة ٠ فانقطع ضحكنا حالا ، وتقنعنا بوجوه فضولية ووجوه القائمين بواجبهم ، ومع هذا ، يخيل الآن الي ، اننا كنا نشعر بأن ثمة شيئا اكبر بكثير مما كنا قد توقعناه ان يكون ، كان قد بدأ ٠ لا أدري ما اذا كانوا قد قالوا لهم ، قبل ان يخرجوا ما الذي ينتظرهم ، والى اين يسوقونهم ٠ ومهما